

# التربية في الأسرة

بقلم الأستاذ أحمد فهمي العمروسى بك

وقفنا بك في العدد الماضى من «المعرفة» عند واجب الأم في مدة الحمل ؛ وفي هذا العدد يجدر بنا أن نتساءل : ألا يجب على الأم في هذا الطرف العجيب - الذى تفرس فيه بذور الغرائز ، وأصول الاستعدادات والميول في نفس الطفل - أن تعتزل الحياة الاجتماعية العامة ؛ بعض الشيء ، فلا تقيد بتلك الزيارات الطويلة المملة للأقارب والأباعد ؛ ألا يجب عليها ألا تسرف في غشيان دور الخيالة والتمثيل ، وأن تقتصد في التأنق والتجمل ، إذا كان فيهما ما يضيق على الجنين الخناق في مسكنه ومضجعه ، فتعوق بذلك حركة الدورة الدموية فيه ، وتوقف نموه بعض الشيء ؟

وأول واجب عليها ، إذا رزقت طفلاً ، أن تغذية بلبنها ، إذا كانت صحيحة معافاة ، لأن لبنها هو الغذاء الطبيعي الوحيد ، الذى يناسب بنية طفلها وحاجاته ؛ وهو الذى يقبىه الأمراض التى تهدده ؛ أما إذا وكلت أمر إرضاعه إلى مرضعة أجنبية ؛ فإتأقل ما يقال فى هذا ، إن إدخال لبن أجنبي فى الأسرة ، هو إدخال دم أجنبي فيها ؛ وبالتالي إدخال وراثته أجنبية فيها ؛ ذلك أن الناس لا يهتمون إلا بلبس المرضعة وغذائها . دون أن يعنوا بقياس درجة ذكائها ، وتبين مبادئها وأخلاقها ، مما يؤثر تأثيراً كبيراً فى نفس الطفل وعقليته . يقول هيرت سبنسر ، فى أهمية الغذاء واختيار الأغذية ، ومعرفة القيمة الغذائية لكل طعام ؛ والوقوف على أسرارها هضماً ؛ وأسهلها ممتلئاً بالبنية ، وأنسبها لتكوين الأجسام ، مع مراعاة البيئة التى يعيش فيها الإنسان ، والأعمال اليومية التى تفرض عليه ؛ « إن الأمم ذات السيادة والسيطرة ، هى التى تعرف كيف تتغذى » .

إن هذا القول ، وإن كان فيه شئ ، من المبالغة المقصودة ؛ إلا أن التاريخ والتجربة يؤيدانه إلى مدى بعيد ، وقد أجريت تجارب فى بعض مدارس فرنسا حديثاً ، أسفرت عن أن هناك ارتباطاً وثيقاً بين نوع الغذاء والأخلاق ، إذ شهدوا أن درجة تقدم التلاميذ ونجاحهم فى الدرس ، وخصوعهم للنظام ؛ كانت تنمو وتطرد بالمراد الغذاء المنظم ، الذى كان يقدم لهم ؛ أما السير على غير هدى فى اختيار الغذاء وتحديد كميته للأطفال والرجال ، فينشأ عنه انتشار أمراض المعدة ، واضطراب الجهاز الهضمى ؛ وقد شوهد أنها أكثر انتشاراً فى الطبقات الغنية منها فى الفقيرة .

والهواء النقي غذاء ضروري للطفل ، كاللبن وغيره من الأطعمة الأخرى سواء بسواء ؛ فقد يستغنى الانسان ، عن الأكل والشرب ، ساعات وأياما ، ولكنه لا يستطيع بحال أن يستغنى عن استنشاق الهواء بضع دقائق ؛ فيجب على الأبوين أن يعنيا برياضة طفلهما كل يوم في المنزهات ، حيث يوجد الهواء الطلق ، والشمس ، والخضرة ، وأن يباشرا ذلك بنفسهما كما يفعل الانجليز ، خاصتهم وعامتهم .

والقاري يعرف بلاشك مقدار الضرر الذي يلحق بالطفل إذا وكل أمره إلى الخادمت ، فقد رأيتهن مراراً وتكراراً يتركن الطفل في عربته يبكي ويش تحت أشعة الشمس المحرقة ، يستغيث ولا يفت ؛ بينما تلهو الخادم ، بالحادثة مع الرجال من الخدم وغيرهم ، ثم هي بعد ذلك تأتي وتوسعه شتاً وسباً ولكما أحياناً .

ولكي تتبين مبلغ عناية الانجليز بكل ماله علاقة بتربية أطفالهم ، أذكر لك فقرة من كتاب « التربية في إنجلترا » تأليف الكاتب الفرنسي « مسيودي كويرتين » ، عن الأسرة الانجليزية : « يرزق الانجليز عادة جمّاً غفيراً من الأولاد يجيشون متتابعين ، فيعني بوضعهم في حجرة منعزلة خاصة بهم تجرى عليهم فيها أحكام التربية في سنتهم الأولى وتسمى بالمرني Nursery . والعوامل الأساسية التي يجب أن تتوفر في المرني ثلاثة : الأم ، المرية ، الهواء . وقد وصف الشاعر الشهير « راسكين » المرني الراق ذاكراً عهد طفولته فقال : إنه حجرة في الطبقة الأولى من المنزل نسيحة الأرجاء ، متجددة الهواء ، وفيرة الضوء ، تامة النظافة ، غاية في السذاجة ، ينام فيها الطفل ويأكل ويرنع ويلعب ، لا يخشى كسراً لآنية ثمينة ، أو إقلاق راحة أمه المرية ، أو التهويش على أبيه المنسكب على عمله ، بها حوض كبير يستحمون فيه كل صباح بالماء البارد ليزدادوا قوة ونشاطاً ؛ وبراعي في لباسهم السذاجة والسمة والنمومة ، إذ ليس الغرض منه الزينة والتباهي بجمال الثياب ، بل الغرض الوقاية من البرد والمطر والهواء مع تمتع الاعضاء بالحركة الحرة والجري واللعب على ما يشتهي الأطفال . وهم يأكلون معاً في مواعيد مقررة ، وطعامهم غير متأنق فيه ولا متكلف ، ويخرجون كل يوم للتريض صيفاً وشتاء ، مستغنيين الساعات في الجري والوثب والتمر والتسلق الأشجار والتدحرج على الاعشاب ، متحملين في ذلك تبعاً لعاملهم ، وعليهم وخدم يقع الضرر من عدم إعمال الروية والتبصر في عواقب الأمور قبل الشروع فيها » . ثم يقول : « وبينما الطفل الانجليزي يشب في المرني على مبادئ الديموقراطية الصحيحة يبيش فيه كفرد من أفراد المجتمع له ماله وعليه ماعليهم لاسلطان له على أحد من إخوته ولو كان أصغر منه سناً ، نجد الطفل الفرنسي يبيش في حضن أمه ملازماً لها ملازمة الظل للمود ، ويجلس على المائدة مع أمه وأبيه وإخوته متى استطاع الجلوس فيهموش عليهم بيكائه ، ويوسمهم من تدلله وكبريائه ، والسكل خاضع لأوامره ومنفذ لرغائبه ، فعجيب ألا يشب هذا الطفل على حب الذات وقلة الاكترات للتبعات . »

وإذا انتهى طور الطنولة الأولى في المربي ، انتقل الأولاد منه إلى مدرسة هي في نظر الانجليز أهم المدارس شعماً ، وأنجعها في نفوس النفس أثراً ، ألا وهي الأسرة . كثير من الأمم يعتقدون أن الظهور كله في معالجة أبنائهم بالذهاب إلى المدرسة ، ظانين أنها خير مكان ينضى فيه الطفل شطراً وقرأً من عمره . أما الرأي العام في إنجلترا ، فلا يذهب مذهبه ، ولا يريد أن يتتبع مسلكاً يناقض النوااميس الطبيعية وبديهييات المنطق .

يقول الانجليز : كيف يعقل أن يكون بيت الانسان أقل البيئات ملاءمة لأولاده ، ومعاشرته والديه قلباً فائدة من معايشة الغرباء ؟ ألا إن الانجليز يعدون عيباً وعاراً ، ألا أن يكون الإنسان هو المدرس الأول لأبنائه ، وألا تكون بيوتهم مجهزة بكل أداة صالحة للاعداد الكامل للطفل من وجهتي التربية العقلية والبدنية . والغرض الذي ترمى اليه الأسرة الانجليزية من تربية أبنائها في هذه السن ، والذي يجب أن يكون غرض كل أسرة من الأمم الأخرى ، هو أن يشب الأطفال أصحاء البنية ، أقوياء الأجسام ، وأن يتعودوا - بالمران والدرية - العادات الحسنة - والأخلاق القويمة ؛ وعلى ذلك تنحصر مهمة الأسرة في التربية البدنية والحقلية لاغير ، أما التربية العقلية فتأتي بعد ذلك ، لأن العقل لا يظهر إلا في سن متقدمة .

لذلك كان يقول المربي الانجليزي «توماس أرنولد» : «إن التمجيل بالأطفال إلى طلب العلم وشحن قرائحهم بمسائل علمية لا يفهمونها ، قد يؤدي بغضارتهم وفضرتهم ، ويضيق فيهم سرعة البادوة ونور البديهة ، ولن يلاقى الأطفال في حياتهم الأولى وبالاشراً عليهم من سبق حقولهم لأبدانهم . وكان هو هو نائل لحدى المدارس يرتفع ويلعب مع تلاميذه الصغار ويخرج معهم يترامون جميعاً بكرات الثلج ، ويسبحون في الماء ، يتسابقون في الجذف بالزوارق ، وكان يقول : «إننا نرى إلى خدمة الجسم وتقويته إلى أقصى حد مستطاع ، لا للتباهي به أو استخدامه في قضاء ما آرب شخصية ، بل لغرض أسمى وأرفع ، هو حماية الضعيف ونصرة العدل في العالم أجمع ، وفتح الدنيا ووراثه الأرض ومن عليها . ثم يقول : «وحيث إننا نريد أن نذهب أفضنا لخير الإنسانية ، فأول ما نعرضه على أنفسنا هو أن نكون أعزاء الجوانب أقوياء السواعد» .

وفي هذا كان يقول «عروة بن الزبير» من ألف وثلثمائة سنة لولده : «يا بني العبوا في المروءة لا تكون إلا بعد اللعب» ، والمروءة هي القيام بما فوق الواجب ، كالنجدة للمستغيث ، وحماية الضعيف وإلى القاريء ، سواً من أميركا في هذا الصدد . يقول «أميرسون» : يجب على الانسان ان يكون حيواناً قوياً ، إذا شاء أن يكون النجاح حليفه في هذه الحياة ، والأمة التي تريد أن تثبتوا مقعد صدق بين الأمم الراقية يجب أن تتألف من أفراد كالطيوان بأساً وقوة والواقع أن سلامة النفوس تتوقف إلى حد بعيد على صحة الأجسام ، فمن النادر جداً أن

تجد ذكاة متوقفاً في جسم حامد . والملاحظات اليومية تدل على أن التردد في الأعمال من شأن ضفاف الأجسام ، أما الأقوياء الأصحاء فهم موطن الجرأة ، والاقدام ، والنبات .  
ويشاهد في مجال الأخلاق كذلك أن الحلم ، وطيبة القلب ، ورعاية الصدر ، لا تكون إلا حيث تكون الصحة ، أما ضعف الجسم واضمحلال البدن فلهما مدعاة لسرعة الغضب وضيق الصدر ، ومبعدة للفأل والجور في كثير من الأحيان .  
تف عند هذا القدر من التربية ، البدنية لتقول لغة ختامية في التربية الخلقية ، وهي لاقتل عن الأولى خطراً واعتباراً .

### التربية الخلقية

إن الولد الصغير يتأثر منذ الولادة بالبيئة التي يعيش فيها، وينظر إلى ما حوله من الأشياء نظرة المتحير المدهش الذي يحل فيها كل شيء ويريد أن يقف منها على كل شيء .  
والذي يساعد على تأثره بالبيئة المحيطة ، مروته العظيمة وقابليته السريعة لانطباع صور الأشياء في ذهنه وبقائها فيه زمناً طويلاً .

ومخ الطفل في سنيه الأولى يحفظ عدداً عظيماً جداً من الألفاظ والعبارات بسرعة مدهشة، ثم هو يقلد تقليداً محكماً ( وأتوماتيكياً ) كل ما يصدر عن والديه والمحيطين به ؛ فأبتساماته الأولى وإشاراته الأولى محاكاة وتقليد ليس غير؛ وكذلك الحال عندما يمشي الولد مشية أبيه ويتكلم بألفاظه وعباراته ، وكذلك البفت تلبس مثل أمها وتمشي مشيتها وتنطق بلغتها، وحتى إذا كان في نطقها بعض العيوب فإنها تنقله عنها .

وبالاختصار نقول: إن مخ الطفل في هذه السن الصغيرة يشبه في سرعة التقاطه صور المرئيات الآلة الميكانيكية المسجلة ؛ بل هو يتحدى أعظم تلك الآلات سرعة ودقة، فقيه تستطيع الأقوال والحركات والإشارات كلها كما هي بلا تغيير ولا تبديل ، وبدون تمييز بين الخبيث والطيب ، والصالح والطالح .

فواجب الوالدين والأهل إزاء هذه الآلة المسجلة البديعة أن يتخيروا أحسن ما عندهم من الألفاظ والعبارات التي يتكلمون بها أمام الأطفال ، ويعينوا بالألفاظ التي تقع نظراً إلا على النماذج الحسنة والمثل الصالحة .

وانذكر لقراء « المعرفة » على سبيل التمثيل حالتين هامتين :

الأولى: يجب على الأهل أن يجتنبوا ما استطاعوا المنازعات والخصومات الزوجية أمام الأطفال، فإنها تنفس في أذهان الأطفال ويبقى أثرها فيها مدى الحياة ، بخلاف الزوجين فإنهما لا يلبثان أن ينسيا كل ما وقع من هذا القبيل بينهما لكثرة مشاغلها، ولأن الحياة الزوجية لا تخلو منها.  
الثانية: قد يبيح الإنسان لنفسه في منزله أن يتكلم بألفاظ وعبارات لا يستطيع أن يتكلم

بها في المجتمع، فأذا خلا بزوجه قد تناول مثل أسير الناس بشئ من الدم والقدح، كما هو المشاهد في كثير من الأحيان، فإذا قيل ذلك أمام الأولاد الصغار، غرس في قوسهم أقيح العيوب وأشنع العادات، كالغيبية والحسد والحقد وما إلى ذلك.

هذا هو الشق السلبي من التربية الخلقية في الأسرة؛ إلا أنه يكفى أن يتمتع الوالدان عن ارتكاب مثل تلك المفوات لتكوين بيئة الأسرة بيئة صالحة لتنشئة الأطفال تنشئة حسنة.

والشق الثاني إيجابي: ويجب على الوالدين إزاهه أن يبتا في قوس أبنائهما بعض الفضائل الخلقية الأساسية التي تقوم حائلاً منيماً أمام رغائب النفس فتمنعها من السقوط في شهواتها. وتلك الفضائل هي بمثابة الضابط الذي ينظم أحوال النفس، كما أن المجموع المعصب في الجسم هو الضابط الذي ينظم حركات أعضائه المختلفة ويوزع عليها جهوده، كل عضو بنسبة العمل الذي يؤديه للمجموع.

وإن طبيعة الطفل نفسها هي التي نعلي علينا نوع الفضائل الخلقية التي يجب أن نغني بشهائبه، ونقشها في ذهنه نقشاً يتي فيه مدى الحياة.

إننا إذا تأملنا تلك الطبيعة، ودققنا النظر في أطوارها وأحوالها، لا نلبث أن نتبين فيها خصتين بارزتين:

الأولى: عدم الاستقرار، وسرعة التنقل من فكرة إلى فكرة، ومن عاطفة إلى عاطفة، ومن صمل إلى آخر، دون مناسبة أو رابطة؛ فتراه ينفذب ويرضى. ويضحك ويبكي على التوالي، بسرعة مذهشة، وبلا داع، أو لداع تافه لا يذكر.

وهذا الزق، وهذا الطيش، كانا من أهم مميزات الإنسانية في طورها الأول. ولا زالا ظاهرين في الأمم المتأخر التي لا تزال في أحط درجات الحضارة والعمران. فترى الرجل منهم يتسبيح بسرعة البرق لأقل الأسباب وأوهاما، ثم لا يلبث أن يهدأ ويسكن لكلمة بسيطة توجه إليه. فبينما هو عدو ميين، إذا به صديق حميم؛ وتلك حال يعرفها السائحون والكاشفون، وكثيراً ما يستغلونها لذلك، وإنجاح مشروعاتهم في تلك البلاد. وقد قطعت الإنسانية شوطاً بعيداً في هذه السبيل، وظلت أجيالاً وقروناً حتى انتقلت من الخلفة والطيش إلى الرزانة والاستقرار، واللذين نشاهدنا الآن في أفراد الأمم الراقية.

هذه هي سبيل الأمم في التدرج في الرقي، وتريد التربية أن تتدرج بالطفل في هذه السبيل؛ ولكن على أن تقطع في بضع سنين الأدوار التي قطعتها الإنسانية في عدة قرون.

وعلاج الأطفال في هذه النقطة يسير لا يحتاج إلى عناء كبير؛ ذلك أنه يوجد في الطفل — بجانب نزقة وخفته — ميل كبير إلى التعمود السريع، فتراه إذا أتى عملاً جملة مرات يأنفه ويمتاده

وبوالب عليه بدفة مدحشة ، لدرجة أنه يغضب إذا اضطر للمعدول عنه . فإذا أجلسه إلى المائدة في محل معين أياماً متتالية فإنه يسرع إليه ويجلس فيه من تلقاء نفسه ، وإذا اعتدى عليه أحد من إخوته وانزعه منه فإنه يغضب وينادر حجرة الأكل ، وكذلك يتمرد الأكل بأدوات مائدة معينة ، ويجب ألا يتخدمه إلا الخادم الذي اعتاد أن يتخدمه ، وهكذا .

الخطوة الثانية : ميله الفطري إلى تجاوز الحد في كل شيء وبلوغ الغاية في كل مأرب ؛ فإذا أحب شيئاً ، فإنه يذهب فيه إلى أعمق مدى - إلى درجة النهم - وإذا منع عنه فإنه يغضب ويبكي ويتمرغ على الأرض ، كما يقول « دارون » ، ويضرب وجهه يديه ، ويدفع كل ما يعترضه من الأشياء في طريقه ، حتى ليخيل للإنسان أنه إذا تركه وشأنه على هذه الحال يموت غيظاً وكداً .  
فالترية الحقة تختم وضع حد لهذه العواطف الثائرة ، التي إذا لم يكبح جماحها في الأطفال منذ الصغر ، ألقت بهم في هاوية سحيقة لا منقذ لهم منها .

ولقد صور الشاعر الألماني العظيم ( جوته ) - منذ مائة عام تقريباً - مقدار تلك العواطف للإنسان إذا لم تعد... في شخصية ( فاوست ) الذي يحدثنا التاريخ عن أنه رجل عاش في القرن السادس عشر لليلاد ، وكان مثلاً بارزاً لامتطش الزائد إلى ملاذ الحياة جيماً ، والانهماك فيها ، وبلوغ أقصى الغايات في كل ما يريد من علم وتفوذ واستمتاع ، فكانت عاقبة هذا الشره غير المحدود ، أن عاش ملول حياته يمانى أشد الآلام ، ويقاسى أمر الأحران ، وفصته مشهورة معروفة وهي تبسط كل ما أجمناه .

وقد توصل علماء النفس في هذا العصر - بعد البحث والتنقيب والتجريب - إلى معالجة هذه الخصلة في الأطفال ، وفرروا أن الطفل في سنه الأولى يكون في حال عقلية شبيهة بعقلية النائم بطريق الأغواء أو الإيهام المنطابسي .

### التدريب المنطابسي

كننا نعرف أنه يشترط لنجاح التنويم المنطابسي شرطان أساسيان :  
الأول : أن النائم يكون في حالة تبعية تامة للنوم ، فتراد كأن إرادته قد سلبت ، وكأن عقله قد ألقى ، وخلا من كل فكرة ، وكأنه قد أصبح في عزلة تامة عن الوسط المحيط به ، فلا يرى إلا شخص النوم ، ولا يسمع إلا كلامه ، وعلى ذلك فكل فكرة يوحى بها إليه ، تدخل ذهنه فلا تجد فيه فكرة أخرى تنازعها وتعارضها ، فيطيعها وينفذها بالفعل .

الشرط الثاني : يجب على النوم أن يوحى إلى النائم الأفكار بصيغة الأمر « إني أريد » وأن يشعره بأن أمره نافذ لا محالة ، وأن واجبه أن يطيع ويمتثل لهذا الأمر ، أما إذا خاطبه بنبر صيغة الأمر الحاسمة ، بأن شرع يناقشه في الفكرة الموحى بها ، فقد زالت كل سلطة له عليه .  
وهذان الشرطان متوفران في الطفل في علاقته مع المرءى والوالدين .

ولأنه في هذه السن الصغيرة ، في حالة تبعية لمربيه ولوالديه ، شبيهة بتبعية النائم للنوم

السابقة الذكر ، فإن ذهن الطفل ، وإن لم يكن خالياً من كل تشوش (Tableau Rose) ، إلا أن ما فيه من سيول وغرائر وتصورات شتى ، يميز لا يستفيع أرباب حائلا دون دخول الأكار الجديدة فيه ، ولذلك كان الطفل مربع التأثر بالقدوة والمثل ، سهل الاقباد ، شديد الميل الى التقليد والمحكاة .  
الثاني : لأنه إذا خاطبه المرني بصيغة الأمر ، فإنه يمثل أوامره ويطيع نصائح بلا تردد ولا توان . والتجارب البسيطة الآتية تؤيد ذلك كل التأيد :

إذا وقت أمام طفل عمره سنتان ونصف سنة ، وقد شرع في أكل قطعة من الخبز ، وقلت له بصوت عال وبدون إبداء أى سبب : « الآن قد شبع الطفل » - والحال أنه لم يتناول إلا القمعة الأولى فإنه يلتنى بقطعة الخبز الباقية على المائدة وينفض يده منها ، ويظهر أنه قد شبع تماماً .  
وقد أمكن بالطريقة عينها إقناع أطفال فى سن الرابعة بأن الألم الذى يشكون منه عقب وقوعهم على الأرض - مثلاً - قد زال تماماً ، وأن مابه من عطش زائد قد أطفى ، وزال كذلك ؛ كل ذلك بشرط أن يكون الكلام الموجه إليهم فى هذا الصدد بصيغة الأمر القاطمة ، من غير إزعاج الطفل لايقاع الرعب فى نفسه .

بهذه الطرق الحكيمية ، والأساليب العامية الصحيحة ، يجب أن نأخذ النشء من بدء حياتهم حتى يشبوا على ضبط أنفسهم بأنفسهم ، ويتعودوا إيقاف كل رغبة من رغباتها عند حد معين ، فلا يطلقون العنان لواحدة منها ، حتى تتمدى نورها وتجاوز حدها ، فتضر بالجموع ضرراً قد يورده موارد الخسران والهلاك ؛ غياة الفرد كحياة الأمة ، توازن قوى يحتوى بعضها بعضاً ، ويدفع بعضها بعضاً ، فإذا اختل هذا التوازن أعقبه الهلاك والفناء .

يقول مسيو أميل دوركين فى كتابه « التربية الخلقية » : إن أمة لا تفرح بالئن ، ولا تفتدق جماله ، أمة متوحشة ، ولكنها من جهة أخرى ، إذا لم تشتغل إلا بالئن خاصة ، مهملة ، بذلك شئوننا الحيوية الجديدة الأخرى ، بشرها بأن عمرها قصير وأيامها محدودة .

وقصارى القول أن النشاط الانسانى يجب أن يخضع فى جميع نواحيه لنظام خاص ، وأن تقف كل ناحية منه عند حد معين ، وغاية محدودة ؛ فكما أن الانسان إذا أراد أن يضنى ، ألم الجوع مثلاً ، أخذ مقداراً معيناً من الغذاء ، كذلك الحال فى المعتقدات ، فإن الاجتهاد فى تحصيل العلم إلى أقصى مدى ، يضر أولاً بالجموع العصى ذاته ، كما يضر بقوة الارادة التى تأخذ طبعاً فى الضمور والاضمحلال ، كلما غلا العقل وتوغل فى كسب العلم .

إن جهود الفرد محدودة ، كما أن جهود الأمة محدودة ، فوجب إذا أراد كلاهما أن يعيش عيشة منقاه ، أن توزع تلك الجهود على ضرورات الحياة المختلفة ، كل بنسبة أهميتها .

أحمد فهمى العروسى